

أضواء البيان

@ 175 في هذه الآية الكريمة : أن من عمل عملاً يريد به الحياة الدنيا أعطاه جزاء عمله في الدنيا ، وليس له في الآخرة إلا النار . .

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الشورى : { وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤُتْهِ مِنْهَا وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِإِحْسَانٍ فَلَهُ جَزَاءٌ أَلِيمٌ } ولكنه تعالى يبين في سورة بني إسرائيل تعليق ذلك على مشيئته جل وعلا بقوله : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ الْعَالِيَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ } وقد أوضحنا هذه المسألة غاية الإيضاح في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في الكلام على هذه الآية الكريمة ، ولذلك اختصرناها هنا . قوله تعالى : { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأُمَّةِ الظَّالِمَةِ فَنُؤِذِنُ لَهُ فِي قَوْلِهِ لَيْسَ عَلَيَّ إِلَّا الْيُسُفُوفُ } . صرح تعالى في هذه الآية الكريمة : أن هذا القرآن لا يكفر به أحد كائناً من كان إلا دخل النار . وهو صريح في عموم رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق . والآيات الدالة على ذلك كثيرة ، كقوله تعالى { وَأُوْحِيََ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَوْ أَنِّي لَبِيتُ بِمَنْ يَدْعُونَ بِنِسْوَةٍ لَخَوِضُ فِيهَا مَعَهُمْ لَبِيتُ بِهِمْ } . وقوله : { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } ، وقوله : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلنَّاسِ } . وقوله : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } . قوله تعالى : { فَلَا تَكُفِّرُ بِنِسْوَةٍ مِّنْهُ } . قوله تعالى : { إِنِّي نَزَّهْتُ الْفُرْقَانَ عَنِ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْسَوْنَ قَوْلِي فَأَعَدُّواْ لَهُ عَذَابًا أَلِيمًا } . نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن الشك في هذا القرآن العظيم ، وصرح أنه الحق من الله . والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جداً كقوله { الْم ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ } وقوله : { الْم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ } وقوله : { وَمَنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ } ونحو ذلك من الآيات . والمرية : الشك . قوله تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } . صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن أكثر الناس لا يؤمنون ، وبين ذلك أيضاً في مواضع كثيرة ، كقوله { وَمَنْ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } وقوله { وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ } ، وقوله : { وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُمَّةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرُ النَّاسِ } ، وقوله : { وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ } إلى غير ذلك من الآيات . ! 77 ! قوله تعالى : { يُضَاعَفُ لَهُمْ الْعَذَابُ } . بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أن الكفار الذين يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، يضاعف لهم العذاب يوم القيامة ، لأنهم يعذبون على ضلالهم ،

ويعذبون أيضاً على إضلالهم غيرهم ، كما أوضحه تعالى بقوله : { الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَا لَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا
كَانُوا يُفْسِدُونَ } . .

وبين في موضع آخر . أن العذاب يضاعف للأتباع والمتبوعين ، وهو قوله في الأعراف { حَتَّى
إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأِيٍّ وَوَلَاهُمْ رَبِّي وَإِنَّا
هَاهُنَا مُّسْلِمُونَ فَأَتَاهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ
{ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا
يُبْصِرُونَ } . في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه ، بعضها يشهد له القرآن :

الأول وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره ، ونقله عن ابن عباس وقتادة : أن معنى {
مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ} أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماع منتفع ،
ولا أن يبصروه إبصار مهتد ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم
في طاعة الله تعالى ، وقد كانت لهم أسمع وأبصار . .

ويدل لهذا قوله تعالى : { وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً
فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ
شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } . .

الثاني وهو أظهرها عندي : أن عدم الاستطاعة المذكور في الآية إنما هو للختم الذي ختم
الله على قلوبهم وأسماعهم ، والغشاوة التي جعل على أبصارهم . .

ويشهد لهذا القول قوله تعالى : { خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ
سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } ، وقوله : { إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } ونحو ذلك من الآيات

. .

وذلك الختم والأكنة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكفر